

المصدر: المجلة سال
التاريخ: أكتوبر ١٩٨٨م

مَأَذِنٌ كَأَمْرٍ لِسَلَامٍ

تزيين افق نيو مكسيكو

بقلم: بارثيشيا دانديا

ويمر المسافرون من أسبانتولا وسانتافي على الطريق رقم ٨٤ ، خلال هيرنانديز ، حيث ابداع انسيل آدمز صورته المشهورة « بزوغ القمر فوق هيرنانديز ، نيو مكسيكو » . وعلى اطراف ابيكويو يجدون اطلال اسوار وصحن كنيسة سانتاروزا . وحين يطلون من فوق هذه الاطلال عبر وادي نهر فيردانت ، يرون خطوط شكل جديد على هضبة مستوية بعيدة - آخر ما اضيف الى فسيفساء ابيكويو الديني : دار الاسلام بجدرانها العاجية ، وقبابها وعقودها التي تحتضن قمة الهضبة ، حيث بنى مسلمو الولايات المتحدة والخارج مسجدا ومدرسة .

سافر السيد عبد الله نورالدين دوركي ، الرئيس التنفيذي لمؤسسة دار الاسلام ، وزوجته نورا الى القدس في اوائل السبعينات ، حيث اعتنقا الاسلام اثناء الرحلة . وفي ١٩٧٧ ، ذهبا للدراسة في مكة . ولدى عودتهما الى نيو مكسيكو ، أسسا دار الاسلام عام ١٩٧٩ . وتحدد وثائق المخطط الذي استخدمته المؤسسة ، تصميمات لمسجد

تقع سانتا روزا دي ليمادي ابيكويو على بعد ٨٨ كيلومترا شمال غربي سانتافي ، في وادي نهر شاما . ولعظم المنتي عام من تاريخها المسجل ، كانت ابيكويو معتادة على المستوطنات الدينية من جميع الأنواع . اليوم ، يدعو رهبان دير المسيح الواقع في الصحراء الزوار الذين ينشدون السكينة ، ويرحب موظفو مزرعة كنيسة روح المشيخية بمن ينشدون المعرفة وزمالة الالفة والمحبة ... وخلال هذا الوقت ، كانت ابيكويو موطن الفلاحين واصحاب المزارع الذين استخدموا مياه نهر شاما لخلق واحدة من أجمل مناظر نيو مكسيكو الريفية .

كما ان الوادي اجتذب ايضا فنانة تركزت انظارها على هضابها المستوية المثيرة فضلا عن الهضاب المنعزلة الشديدة الانحدار والاراضي الرديئة التي تحيط بالوادي . وخلدت جورجيا اوكيف المكان في لوحاتها . (اقرأ المقال التالي) .

ومدرسة ، ومساكن وفنادق ، ومعهد للدراسات الاسلامية ، ومكتبة ، ودار نشر ، ومركز حرف ، ومركز صحي وآخر للاراضي . كل هذه ، بعون الله ، سوف تخلق « مركز اشعاع للاسلام مكرس للعبادة والدراسة العميقة ونشر العقيدة الاسلامية من واقع القدوة والمثل » ، كما تقول الوثائق .

وفي الولايات المتحدة أكثر من مليون مسلم ... ويعيش ١٥٠ مسلماً الآن في ابيكويو - اطفال مدارس ، تجار ، حرفيون - ودور المؤسسة ، كما يراه دوركي ، هو توفير الدعم لهؤلاء السكان . « فنحن متحمسون لاقامة الاعمال الصغيرة والخاصة ، ومكتبنا مكون من ثلاثة افراد ، فنحن لا نهتم بالبيروقراطية » ، كما يقول .

اشترت المؤسسة وهي شركة لا تبغي الربح في نيومكسيكو ، اولا موقعا مساحته ٤٠٥ هكتارا من الفاسمبسون ، مزارع ضفاف ريوشاما منذ زمان طويل ، مقابل ٢٧٢٠٠٠ دولار . ومن ضمن الصفقة ١٦٢ هكتارا في وادي شاما . وفي عام ١٩٨٤ ، اشترت المؤسسة ٢٨٢٢ هكتارا اخرى من اراضي مزرعة رانشودي ابيكويو من السيد سمبسون ، من بينها مبنى جميلا .

وجاء تمويل دار الاسلام اصلا من الهبات الخاصة ، خاصة من المملكة العربية السعودية . أما الآن ، ولأن دار الاسلام تستفيد من الزكاة ، تنوعت مصادر التمويل ، رغم انها لا تزال مركزة على الشرق الأوسط . أحد المدعين الأوائل لدار الاسلام كان سهل قباني ، الذي يدير الآن شركة الهلال للتأجير والتطوير ، وهي شركة تبغي الربح تستأجر اراضي من دار الاسلام لمشروعاتها ، من بينها موتيل ، وبقالة ، ومحل هدايا ، ومحل سيارات ، وشركة بناء مساكن ، ومحل لاعمال التجارة .

في عام ١٩٨٠ ، سافر المهندس حسن فتحي مع بناءين نوبيين من

مصر الى ابيكويو لشرح طريقة بناء القباب والعقود فضلا عن الاشكال الهندسية الدائرية (راجع المجال عدد ١٢٩) . والمهندس فتحي الذي الف كتاب « الهندسة للفقراء » ، امضى حياته العملية في ترويج استخدام مواد البناء المتوفرة في البيئة المحلية ، ومن بينها اللبن ، والخفاف ، والمرجان وغيرها . ويقول : « رجل وحده لا يستطيع بناء بيت ، لكن عشرة رجال يستطيعون بناء عشرة منازل . » واجتذبت التجربة اناسا من انحاء عديدة من البلاد ، وخلال عام ، تم بناء المسجد . وعاد المهندس حسن فتحي الى نيومكسيكو عام ١٩٨١ لحضور احتفالات التدشين ، فدخل المبنى ، وخلع نعليه ، وسجد مصليا ، ثم اعلن : « الاضاءة متناسقة . »

وهذا هو اللواقع ، فالمسجد ، وهو عبارة عن بناء صغير ، يتفق مع بيئة اشجار البنيون والعرعر الموجودة على الهضبة . وفي الداخل تجد السطوح رقيقة سلسة ، والضوء ينساب من قباب مختلفة بزوايا مختلفة في كل ساعات النهار وكل مواسم العام ... وهناك احساس بالرحابة ، والاثاث القليل قريب من الارضية . وكل الالوان محايدة - الكريم والعاجي - وحتى فرش الارض لا يشتت انتباه العين . انه مكان تأمل له خاصية سمعية بديعة . ويحب المهندس فتحي دائما ان يقول : « المستقيم هو خط الواجب ، والمنحني هو خط الجمال » ، والمسجد برهان هاديء على صحة كلامه .

ويقول دوركي ان الفنانة اوكيفي سحرتها القباب خلال الزيارة الوحيدة التي ادتها لجيرانها عبر النهر ، وسمتها « العيون » . وخلال صلاة الجمعة ، يدخل المصلون من الباب الجنوبي الشرقي ، وينتقلون الى الحجرة المبلطة حيث يتوضؤون ، ثم يسرون بلا نعال الى المكان الاوسط لأداء الصلاة . وتدخل النساء من الباب الشمالي الغربي محجبات وحيانا منقبات ايضا ، ويتوضآن ، ثم يؤدين الصلاة .

وتقع حجرة النساء ، ودار حضانة الاطفال وراء ستارة مصممة بحيث تسمع بانسياب الضوء وسماع الصلاة ، وتمنع الاتصال الشخصي الذي يؤدي الى تشتيت الانتباه . ويغطي الحصر التقليدي الارضيات . وقد صممت الستارة والتكسيات على طريقة « السبعة ثمانية » . واذا رفعت بصرك عرفت سر انبهار اوكيفي بالقباب ، فليست هناك زوايا حين تستدير الحوائط المربعة في منحنيات القبة . ويتبع البصر المنحنيات الى الضوء .

الى جانب المسجد توجد سلسلة المباني المهيبة بعقودها وقبابها البرميلية الشكل التي تسقف المدرسة . وقد تم تشييد نحو اربعة آلاف

متر مربع من المباني ، ومن المخطط تشييد أربعة آلاف متر أخرى . وفي الداخل ، تجد شبكة من الممرات ذات العقود ، والأفنية المسيجة وحجرات الدراسة المقبية . ويتدفق الضوء من ابواب معقدة خلال قاعات طويلة ، خالقة مناظر داخلية مثيرة . هنا أيضا احساس بالتأمل . النوافذ ذات ستائر من الطوب على اشكال سبعة ثمانية ، سامحة للضوء بالدخول ، مانعة ما يشتم الانتباه . الابواب مشغولة باشكال خشبية بديعة ، رغم انها ليست وحدات تصويرية . وتأوي المدرسة الآن ٦٠ تلميذا يحضرون الفصول الابتدائية ، فضلا عن أساتذتهم وهيئة المدرسة الادارية .

نورالدين دوركي واحد من خمسة في العالم نالوا شهادة بناء ماهر من المهندس حسن فتحي . كان يشيد المباني بالطوب اللبن منذ الخمسينات ، حينما قدم الى نيومكسيكو ، ولكن حينما سألته ان كان صحيحا ان اسميه « باني » دار الاسلام ، كما يدعو البعض ، اجاب : « هذا القول ينتقص من جهد كثيرين تدربوا اثناء العمل وكثيرون منهم حرفيون مهرة ، لهذا اعتقد ان هذا القول غير صحيح . » حقيقة ان كثيرين تعلموا طريقة جديدة لاستخدام الطوب اللبن في البناء ، يمكن مشاهدتها في أماكن أخرى من نيومكسيكو ، حيث تظهر العقود والقباب المشيدة من الطوب اللبن في الاماكن السكنية . ومهارة تشييد مباني من اللبن كانت معروفة للجنوب الغربي ، ولا تزال باقية في كنيسة سان كزافييه ديل باك في توسون بولاية اريزونا ، التي تم تشييدها عام ١٧٩٧ . ومع ذلك فمنذ ذلك الوقت اختفت هذه المهارات ، الا في الأفران التي تعتبر صفة دائمة في كل قرية هندية . ويتوقع دوركي وقتا « تحسن فيه القباب والعقود خط افق سانتاني . »

أما من حيث امكان تسمية هذا المعمار بالثورية ، فيقول : « الثورة كلمة مخيفة . لا ، كلمة الثورة تعني ايضا الدورة في الانكليزية ، اي دورة العجلة . نحن نعتبره معمارا تقليديا لانك اذا نحيت القباب والعقود ، لن تجد شيئا مختلفا عن معظم معمار نيومكسيكو واريزونا . » وكما قال المهندس فتحي : « نحن نعمت بصلة قرابة باللبن . »

احترام التقاليد والاتجاه المحافظ الواعي يعطيان المشروع كله شكله وجوهره . فالبرنامج الدراسي ، والكتب ، والمدرسة نفسها ، تعكس رغبة في الحفاظ على ما يعتبر افضل التقاليد الاسلامية . ويقول دوركي في وصف دور الدراسات الدينية في اعمال المدرسة : « أنت لا تولي العالم ظهرك ، ولكن عليك ان تجد اين تضع قدمك . »

المدرسة سميت باسم الملك السعودي خالد ، الذي وفر مع ابنائه

الأموال لشراء الأراضي الأولى وبدء البناء . الدراسة بالمدرسة الأولية بدأت في عام ١٩٨٣ . وفي نهاية الأمر ، سوف يشمل المجمع التعليمي روضة أطفال ، ومدرسة ثانوية ، ومركزا للمرأة . ويصف دوركي مختبر اللغات بأنه قلب المدرسة ، فمن خلاله سوف يتعلم الطلبة ان يكونوا ثنائيي اللغة (في الانكليزية والعربية) حتى تكون الموارد الثقافية للتقاليد الاسلامية في متناولهم .

« ونحن لا نعتبر انفسنا مشروعاً محلياً فقط ، بل وقومياً ايضاً . ونرى المدرسة باعتبارها ستصبح مختبراً او مدرسة نموذجية . ونحن نحاول الوصول الى مستوى آخر من الكمال العلمي الصارم ، للحفاظ على قيم تقليدية معينة . »

كما يتم تطوير التعليم العالي ايضاً ، فالجلسة الاولى لمعهد الدراسات الاسلامية التي انعقدت في اغسطس / آب ١٩٨٦ ، قصدت « ان توفر لخريجه التغذية الاستراتيجية التي تعيدهم للعالم متحدثين محترمين باسم الاكاديمية الاسلامية . »

وقد تبدو ابيكويو لأول وهلة اختياراً غريباً لمركز اسلامي ريفي متقدم في الولايات المتحدة ، لكن القرية تقع على نفس خط العرض الذي تقع عليه مراكز الاسلام الرئيسية ، وجمالها عنصر ، وطقسها الصحي عنصر آخر . جاذبيتها العظمية في عزلتها ، رغم صلتها بطرق السياحة الرئيسية . هذه الصلة هامة ، لأن احياء الحرف الاسلامية التقليدية احد اغراض ذلك المجتمع ، ومن ثم فسان اشغال النجارة ، وصنع القرميد ، واشغال الجلد وغيرها تعتبر جزءاً من الحياة اليومية .

بنيامين فان هاتون مسلم هولندي عاش في ابيكويو لمدة اربعة اعوام ، وهو شريك في شركة الموبيليات المسماة « المبخرة » التي تقع على الطريق المؤدي الى المبنى الرئيسي . واثناء دقه على ستارة خشبية لتثبيتها في اطار ، يقول ان لكل تصميماته اسماء ، ترمز الى « الهياكل الابداعية » - كسالطقس ، والفصول ، والجزئيات ، وتناسق الشاذ والسوي ، العضوي وغير العضوي ، « كل شيء من عند الله ، ونحن نعتقد ان اشق واجبات الانسان هو ان يجعل حياته في تناسق . كل الحرف تعمل داخل حدود معينة ، في اشكال ثبتت من زمان طويل . »

فان هاتون وغيره صنعوا مكاتب البلوط اللازمة للمدرسة ، كما صنعوا الابواب التي تزين المدرسة والمسجد .

وهو يقول : مرحبا بزوار المصنع في اي وقت ، والواقع ان الزوار يجدون انفسهم موضع ترحيب فوري في دار الاسلام . ويتم تقبل الأسئلة بسرور ، وهي ميزة ترى نورا دوركي انها من الخصال الاسلامية النموذجية .

عندما سافر آل دوركي الى مكة للدراسة ، التقوا بـرجل الأعمال والصناعة سهل قباني ، محسن دار الاسلام . وكان القباني قد درس الهندسة في الولايات المتحدة ، وكان حريصا على رد الجميل لهذه البلاد ، واستثمر أكثر من ١٥٠ ألف دولار في مشروعات مؤسسة دار الاسلام . وهو عضو في مجلس أمناء المؤسسة ، مع ثمانية آخرين من المملكة العربية السعودية والبحرين والولايات المتحدة والمغرب .

ومن بين أكثر من ٢٠ أسرة تكون سكان وادي شاما ، أتى أكثر من الثلثين من الولايات المتحدة ، والباقيون من مصر وتركيا وسورية والأردن واسبانيا وبريطانيا وهولندا وبلجيكا وايرلندا ومعظمها أسر شابة في اواخر العشرينات او اوائل الثلاثينات ، معظمهم حديثي عهد باعتناق الاسلام ولدى معظمهم اطفال صغار ، الامر الذي جعل نورا دوركي تقول : « لدينا نقص في الجدات ، فنحن نحتاج الى حكمتهن . » وهدف المشروع هو توطيد خمس او عشر أسر سنويا في قرية دار الاسلام ، « حسب مدى التكامل الاقتصادي والاجتماعي الذي يتم احرازه مع المنطقة » ، وتستطيع نحو ٢٥٠ أسرة ان تنتقل الى القرية التي تملكها المؤسسة ، ولكن ذلك يعتمد على قدرة استيعاب الأرض ، والعلاقة مع قرية ابيكويو ، وتوفير الاسكان والوظائف .

عبر ريو شاما ، يعتبر قرويو ابيكويو حذرين ، فضوليين ، ويقبلون القادمين الجدد . ويتم التوسع في تجربة التنوع الديني التي اصبحت بالفعل جزءا من تاريخ ابيكويو ، بفضل القادمين الجدد .